

المصدر : نيوزويك

التاريخ : ١٧ ابريل ٢٠٠١

البلقان

الخبيل الكبير

أودع ميلوسوفيتش السجن، ولكن مواجهة العدالة ليست كذلك

بقلم زوران سيرجاكوفيتش

عندما استسلم والدها، عمدت ماريا إلى رمي منفضات السجائر في غرفة الجلوس في حالة من الغضب العقيم. وطاردت أباهما على سلالم الهبوط في المنزل وهي تلوح بمسدس في كل يد، صارخة: "يا جبان! لماذا لم تقتل نفسك؟" وعندما حمل رجال الشرطة والدها في سيارة مصفحة من طراز بي أم دبليو، اندفعت ماريا إلى الخارج وهي تطلق النار. ولم يصب أحد من جراء ذلك، وتمكنت الشرطة من إخضاعها.

وقد وجهت إليها تهمة انتهاك قوانين حمل السلاح وعرقلة جهود الشرطة. وبعد ذلك كشف تفتيش أجري في الفيلا عن وجود ترسانة صغيرة من البنادق الرشاشة وأسلحة أخرى.

بوسع ميلوسوفيتش أن يتوقع إقامة طويلة آمنة وراء القضبان، في الوقت الذي تهدئ فيه ابنته أعصابها. في الأسبوع الماضي أصدرت المحكمة الدولية لجرائم الحرب رسمياً أوامر بتوقيفه

ونقله إلى لاهاي. وأصرت المدعية العامة كارلا ديل بونتي على أن يتم تسليم المدعى عليه فوراً، في حين لم تضع إدارة بوش وقتاً في توثيق تعاون يوغسلافيا مع المحكمة، مما يؤدي رسمياً إلى وقف تجميد مبلغ 40 مليون دولار من المعونات الأمريكية التي تحتاج إليها بلغراد بشدة.

وهنا تعهد فويسلاف كوستونيتشا، رئيس يوغسلافيا، بعدم تسليم ميلوسوفيتش إلى المحكمة الدولية لجرائم الحرب في لاهاي. تقول بعض التقارير الصحافية إن ثمن الاستسلام

يحتوي منزل سلوبودان ميلوسوفيتش الجديد على كل وسيلة من وسائل الراحة. أما الزنزانة المحاطة بإجراءات أمن مشددة في سجن بلغراد المركزي فتحوي على ثقب لاختلاس النظر، لكي يتمكن الحراس من مراقبته في المراض، وفتحة لتقديم وجبات الطعام إليه على أطباق من البلاستيك الرغوي. وبعد أن أخذ السجناء رباط حدائه وربطة عنقه وحزامه، ظل بنطاله من الغباردين الأزرق يسجل، كما قال أمر السجن. وأخيراً، سمح لزوجته الرجل القوي الساقط، التي كان يخشى رهبتها يوماً، وهي زعيمة الحزب الاشتراكي ماريانا ماركوفيتش، بأن تحضر لزوجها بدلة تدريب رياضي بحزام مطاطي. وجاءت إلى السجن برداء من الصوف ترتديه الأرامل.

لم يتصور أحد أن تنتهي الأمور على ذلك النحو. فبدلاً من إطلاق صيحات الفرح والانتصار، تمتلئ صدور المناوئين القدماء للرجل القوي بشعور غريب من خيبة الأمل والحرع. عندما جاء رجال الشرطة إلى فيلا ميلوسوفيتش ومعهم أمر بالتوقيف، هدهم الرجل، وتوعد ولوح بمسدس، وأقسم على أنه سيقتل زوجته وابنته ونفسه قبل أن يسلم نفسه. ثم سلم نفسه فجأة. تقول بليانا سريبيلجانوفيتش، الكاتبة المسرحية المرموقة ومن منتقدي النظام الحاكم. "هذا وضع مبتذل للغاية. عندما أرى سلوبو الآن، أشعر بالخبيل. إذ ظهر الآن أننا كنا نخاف رجلاً لا يعدو أن يكون مجرد أحمق".

إذا كان هناك أي داع للعزاء فهو أن مؤيدي ميلوسوفيتش يشعرون بقدر أعظم من المذلة.

ومن ناحية أخرى، هناك فرصة في أن يحكم عليه بالإعدام إذا ظل في بلغراد مدة كافية. فعلى عكس محكمة الأمم المتحدة لجرائم الحرب، تطبق يوغسلافيا عقوبة الإعدام (لكنها لم تستخدم لسنوات كثيرة، حتى أثناء حكم ميلوسوفيتش). وما زالت الحكومة تتدارس التهم التي ستوجهها إلى الزعيم المخزي. وكان وزير العدل الصربي فلادان باتيتش أعلن أنه ستوجه إلى ميلوسوفيتش قريبا تهم بارتكاب جرائم لم يحددها عقوبتها الموت، ربما تكون لها علاقة بجرائم قتل ارتكبت ضد عدد من منتقدي النظام السابق.

إن غياب عقوبة الإعدام ليس الحسنة الوحيدة بالنسبة إلى السجن في لاهاي. وكغيره من مجرمي حرب البلقان الذين ينتظرون دورهم أمام المحكمة هناك، يسمح لميلوسوفيتش بزيارات

زوجية من قرينته. كما يتلقى السجناء هناك مزايا لا تتوافر حاليا لميلوسوفيتش، وهي أجهزة راديو وكامبيوتر وتلفزيون، بما في ذلك قنوات فضائية إباحية.

كذلك فإن موقع مجرمي الحرب في لاهاي هو مكان ودي بشكل يثير الدهشة. إذ إنه يسمح للمسلمين والكرواتيين والصرب بالتزاور، وهم يفعلون ذلك مرارا على الرغم من الفظائع العرقية المدونة في لائحة اتهام كل منهم. بل إن أحد السجناء الصربيين ألف أغنية شراب لزملائه السجناء. ويقول ممثلو النيابة إن السجناء ينشدون الأغنية معا وهم يحتسون كؤوس النبيذ غير الكحولية (السجانون في لاهاي يتحلون بحس كبير من كرم الضيافة). تقول كلمات الأغنية: "نحن زمرة صغيرة، ولكنها زمرة نزيهة! إذا التحق بنا قادتنا الحقيقيون، فسيأتي الآلاف أيضا".

ولدى المتهمين أسباب كثيرة تدفعهم إلى رفع أصواتهم بالفناء. فالأحكام الصادرة عن المحكمة كانت متساهلة للغاية، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار فداحة الجرائم التي يفترض أنهم ارتكبوها. وقد أدين حتى الآن تسعة يوغسلافيين بتهم الإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية أو بارتكاب انتهاكات جسيمة لمواثيق جنيف. ولم يتلق أي منهم العقوبة القصوى المسموح بها، وهي السجن مدى الحياة. وأقصى عقوبة صدرت حتى الآن هي الحكم بالسجن مدة 45 عاما على الجنرال تيهومير فلاسيك، وهو ضابط كبير في جيش كرواتيا أدين بذبح سكان قرية أحميثشي عن بكرة أبيهم، من بينهم أكثر من 100 امرأة وطفل.

تضمن وعدا خطيا بأنه لن يتم تسليم ميلوسوفيتش إلى المحكمة أبدا. لكن سيدومير جوفانوفيتش، كبير مفاوضي الحكومة أثناء المواجهة، نفي عقد صفقة كهذه. بل قال إن الرئيس كوستونيتشا ورئيس وزراء الصرب زوران دجينجيتش أصدر بياناً موقعا بأنه يجري اعتقال ميلوسوفيتش كمجرم عادي وفق القانون اليوغسلافي. ويصر جوفانوفيتش على أن الوثيقة لم تذكر شيئا عما سيحدث بعد الاعتقال. وقد صاغ المسؤولون في الحكومة الصربية مشروع قانون يسمح بتسليم ميلوسوفيتش بتهم ارتكاب جرائم حرب. ويقولون إن التسليم قد يتم في موعد أقرب شهر مايو.

ميلوسوفيتش ليس في عجلة من أمره. فمقارنة بسجناء آخرين في معظم سجون يوغسلافيا، فإنه في جنة. وهو محتجز مع عدد متزايد من أعوانه السابقين في جناح من السجن المركزي يصفه محاميه في بلغراد توما فيلا بأنه بمثابة "فندق هيات". تبلغ مساحة زنرته ثلاثة في أربعة أمتار (وهي مزودة بالماء الساخن وبدش خاص للاستحمام)، وهي مساحة مخصصة لستة سجناء في العادة. ولكنه يستمتع بتلك المساحة وحده. ويتلقى صحف بلغراد اليومية ودورة من التدريب الرياضي في الهواء الطلق يوميا. ويسمح لزوجته بزيارته وإحضار بعض اللوازم، مع أن المحامي فيلا يشكو من أن ميلوسوفيتش وزوجته لا يسمح لهما بقضاء وقت خصوصي معا. وتفيد الأنباء أن ميلوسوفيتش ما زال يصدر الأوامر لحزبه السياسي القديم. ولا يسمح له بالاختلاط بالسجناء الآخرين، كما أن الحراس يراقبونه على الدوام للتأكد من أنه لن يمارس، تقليد عائلته بالانتحار. ذلك أن كلا من والديه مات منتحرا.

وحتى العقوبة القصوى ربما لا تكون صارمة كما تبدو. لدى المحكمة قائمة قصيرة بأسماء "البلدان المضيفة" حيث يمكن لمجرمي الحرب المدانين بقضاء فترات سجنهم. ووفقا لقواعد المحكمة الدولية، يتم تنفيذ عقوبات السجن بموجب القوانين والممارسات القضائية في البلد المضيف، بما في ذلك أمور مثل إعفاء السجن من بقية مدة محكوميته وفقا لشروط معينة وتخفيض مدة المحكومية لقاء حسن السلوك. تقع معظم البلدان المضيفة في إسكندنافيا أو أوروبا الشمالية، التي تتميز فيها الممارسات الجزائية بأنها من أكثر النظم رفقا في العالم. يقر جان جاك جوري، المستشار السياسي الخاص لكبير المدعين النيابيين، قائلا: "لا ضمان هناك بأن الحكم بالسجن المؤبد سيعني السجن مدى الحياة".

يقول معظم المراقبين إن ميلوسوفيتش سيكون له يومه في لاهاي عاجلا أم آجلا. والسؤال هو: متى؟ في الأسبوع الماضي أشاد حلف شمال الأطلسي (الناتو) باعتقاله على أنه "بداية الطريق إلى لاهاي". وتقول المحكمة العليا إن يوغسلافيا ملزمة كعضو في الأمم المتحدة بتسليم ميلوسوفيتش فورا. يقول جوري: "نحن مستعدون لبدء المحاكمة. بعد ذلك يمكن إعادته إلى بلغراد لمحاكمته بتهم محلية". وفي غضون ذلك، لا يسع ملايين الناجين في البوسنة وكرواتيا وكوسوفا إلا أن يتمنوا أن يكون بوسعهم العيش بمثل الراحة التي يتمتع بها الزعيم الصربي الساقط. عشرارة رود نوردلاند في لندن.